



٨

بقلم الأستاذ  
طه عبد الباقي سرور

صلة الخلاج بالله :

ونتمنى مع الخلاج خطوات في آفانه الذوقية ، وفي مواجيدته وحببه للذات الإلهية ، وفي تلك المجالات الروحية التي ابتدعها حول صلات المبدى الولي المختار ، بمفيض الوجود ومبدعه وماله .

وصلة الخلاج بالله سبحانه ، تدور على قطبين : الحب الواله القوي الغلاب المذهل ، والقضاء في هذا الحب قضاء شاملا يذوب فيه كل شيء مادي دينوي ويحترق ليخلد .

ثم مرحلة السير في هذا الحب ، ومجالات هذا السير الروحية ، بما فيها من الهامات وتجليات ومواجيد وأشواق وحيرة ودهشة وعذاب .

والحب هنا في عذاب ملهم ، يعذب في بحثه عن مولاه ، ويعذب في حبه له ، ويعذب في حيرته حيال جبروته وآياته .

والعذاب في الحب الإلهي أكبر خير يفيضه الله سبحانه على عبده ووليه المحبوب .

وإن لله سبحانه لنظرات واشراقات وزيارات للقلب المحب المعذب المحترق ، زيارات تهب ولها مقدسا ، يعقبه هجران يدفع إلى دهشة مخلقة .

ومن كل هذه الانفعالات تنبثق مواجيد المعرفة العليا ، وتسبيحات الولاية العظمى ، وينبثق فوق هذا وذاك في قلب الحب ، فيض إلهي يعبر عن الإرادة الإلهية ويقتبس من نورها وهماها .

وروح الحب الولي ، هو وحده الذي يظفر بهذا الفيض الإلهي ، لا عن طريق الحلول النحزي ، بل بوساطة الفيض النوراني الذي يرفع أرواح الأولياء المحبين إلى المراتب القدسية .

وخلال هذا الفيض أو الاتصال ، تحدث الجذبة الروحية التي تصورهما لتلتك المناجاة المشعة المستمرة بين روح الحب ومحبيه الاسمي الذي تشعر بوجوده في أعماقها . وحينئذ تنبثق ضراعات الروح وترتفع إلى مولاهما بكل آلامها وآمالها وأشواقها في لغة فوق لغة الألسن ، وفي تصوير لا يمت إلى العلائق الدنيوية بصلة أو نسب .

يقول الحلاج :

« إعلم أن العبد إذا وحد ربه فقد أثبت نفسه ، ومن أثبت نفسه فقد أتى بالشرك الخفي ، وإنما الله تعالى هو الذي وحد نفسه على لسان من يشاء من خلقه » : - وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى -

والذين لا يستطيعون متابعة مثل هذا الروح في عروجه وسلوكه وجهه وعذابه وتجربته ، لا يستطيعون أن ينكروا أنها محاولة في المعرفة الذوقية ، وفي الحب والإيمان اليقيني ، ليست أقل شأنًا في تاريخ العقل الإنساني من مسلك الفلاسفة ، ومنهج المتكلمين .

يقول الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي : « إذا كان وجود الخالق ووجود المخلوق واحداً ، فلا معنى لقيام حوار العشق بينه وبين الله » ،

وهذه آية الآيات على نفي الوحدة ، ونفي الحلول في منهج الحب الإلهي الصوفي والحلاج من أكبر من تغفوا بالحب الإلهي ، ولعله أكبرهم عاطفة ، وأشدهم وجدًا ولها .

يقول الحلاج : « إن المسافة بين النفس وبين الله تتوقف في مقدارها على صفة العشق الإلهي » ،

ويقول : « إن شهادة الحمد هي شهادة حب ، وإن القلب الذي يعرف الحب لا يموت ابداً ،

إن عذاب الحلاج في حبه ، وفي صلته بربه لتقدم لنا أروع نماذج الإيمان الصوفي  
لقد عاش الحلاج في وجد وعذاب ، وفي سبحة علوية من إلهامات حبه  
وشوقه وذوقه .

ولأنها لمواجيد حق وصدق ، وإن عجزت عنها فهمم الأكابر .  
يقول الحلاج (١) .

مواجيد حق أوجد الحق كلها وإن عجزت عنها فهمم الأكابر  
وما الوجد إلا خطرة ثم نظرة تنشى لهيباً بين تلك السرائر  
إذا سكن الحق السريرة ضوعفت ثلاثة أحوال لأهل البصائر  
والوجد والعذاب فيض رباني على المصطفين الأحبة ، ولهذا فهو لا يصطنع  
في وجده ما يلهيه ويثيره من سماع أو ذكر كما يصطنع غيره .

أنت الموله لى لا الذكر ولهنى حاشا لقلبي أن يعلق به ذكرى  
الذكر واسطة تخفيك عن نظرى (٢) إذا توشحه من خاطرى قد كرى  
وكل شيء في الوجود مادي أو معنوي ، هو حجاب دون رؤية الله سبحانه ،  
يجب الفناء عنها ، كما يجب أن يفنى الإنسان عن نفسه أيضاً .

بدا لك سر طال عنك اكتتاه وقد لاح صبح كنت أنت ظلامه  
وأنت حجاب القلب عن سر غيبه ولولاك لم يطبع عليك ختامه (٣)  
إن تجربة الحلاج الصوفية في المعرفة الإلهية لتجربة فذة عليها طابعه وحده ،  
لقد شارك الصوفية في مواجيدهم وأذواقهم ، ثم ابتدع منهاجاً خاصاً به «و سره  
الأكبر ، لقد جعل من الآلام شيئاً مقصوداً لذاته .

أريدك لا أريدك للثواب ولكنى أريدك للعقاب

(١) ديوان الحلاج مقطوعة رقم ١٩

(٢) ديوان الحلاج مقطوعة رقم ١٨

(٣) ديوان الحلاج مقطوعة رقم ٢

فمكل مآربي قد نلت منها سوى ملذوذ وجدى بالعذاب (١)  
والحب لذة لا يعرفها إلا الصفوة من المحبين  
مكانك من قلبى هو القلب كله فليس لخلق فى مكانك موضع  
وحطتك روحى بين جلدى وأعظمى  
فكيف ترانى إن فقدتك أصنع (٢)

ونحن ندنو رويدا من فلسفة الحلاج العليا فى الحب الإلهى .  
وأى أرض تخلو منك حتى تعالوا يطلبونك فى السماء  
تراهم ينظرون إليك جهرا وهم لا يبصرون من العما (٣)  
لأنه كما يقول المستشرق - دى بور - يحاول أن يتذوق بروحه ما يحاول  
المتكلمون والفلاسفة أن يصلوا إليه بالنظر العقلى . ولأنه للحب العالى . الحب  
الذى تعجز الكلمات عن تصويره أو كما يقول دسمنون ، لا يعبر عن شىء إلا بما هو  
أرق منه ولا شىء أرق من المحبة فيما يعبر عنها .

يقول الحلاج :

لى حبيب ازور فى الخلوات  
ماترانى أصغى إليه يسمع  
كلمات من غير شكل ولا نطق  
فكأنى مخاطب كنت إيا  
حاضر غائب قريب بعيد  
هو أدنى من الضمير إلى الوجود  
حاضر غائب عن اللحظات  
كى أعى مايقول من كلمات  
ق ولا مثل نفمة الأصوات  
على خاطرى بذائق لذائق  
وهو لم تحو رسوم الصفات  
م وأخفى من لائح الخطرات (٤)

ومن الكلم المضى الذى يكشف عن منهج الحلاج وإيمانه الذوقى ، تلك  
الدراسة التحليلية الرائعة التى أدارها الحلاج حول كيفية معرفة الإنسان لربه وخالقه  
قال فى الطواسين (٥) وهى من أدق وأعمق ما انفرجت عنه الأقلام .

(١) ديوان الحلاج مقطوعة رقم ٧

(٢) ديوان الحلاج مقطوعة رقم ٣

(٣) ديوان الحلاج مقطوعة رقم ١

(٤) ديوان الحلاج مقطوعة رقم ١١

(٥) الطواسين ص ٧١ — ٧٢ — ٧٣

... من قال عرفته بفقدى ، فالمفقود كيف يعرف الموجود ، ومن قال عرفته بوجودى ، فقد يمان لا يكونان .

ومن قال عرفته حين جهلته ، فالجهل حجاب ، والمعرفة وراء الحجاب لاحقيقة لها .

ومن قال عرفته بالاسم ، فالاسم لا يفارق المسمى ، لانه ليس بمخلوق .

ومن قال عرفته به فقد اشار إلى معروفين ؟ ومن قال عرفته بصفتة ، فقد اكتفى بالصنع دون الصانع ، ومن قال عرفته بالعجز عن معرفته ، فالعجز منقطع ، والمنقطع كيف يدرك المعروف .

ومن قال كما عرفنى عرفته ، فقد اشار إلى العلم فرجع إلى المعلوم ، والمعلوم يفارق الذات ، ومن فارق الذات كيف يدرك الذات .

ومن قال عرفته كما وصف نفسه ، فقد قنع بالخبر دون الاثر

ومن قال عرفته على حدين ، فالمعروف شيء واحد لا يتجزأ ولا يتبعض ؟

ومن قال : المعروف عرف نفسه فقد أقر بان العارف فى البين متكلف به ، لان المعروف لم يزل كان عارفا بنفسه يا عجباً ممن لا يعرف شعرة من بدنه ، كيف تثبت سوداء ، أم بيضاء ، كيف يعرف مكنون الاشياء .

من لا يعرف الجميل والمنفصل ، ولا يعرف الآخر والاول ، والتصارييف والعلل ، والحقائق والحيل ، لا تصح له معرفة من يزل .

سبحان من حجبهم بالاسم والرسم والوسم ، حجبهم بالقول والحال والكمال والجلال ، عن الذى لم يزل ولا يزال . القلب مضفة جوفانية ، فالمعرفة لا تستقر فيها ، لانها ربانية . من قال عرفته على الحقيقة ، فقد جعل وجوده أعظم من وجود المعروف ، لأن من عرف شيئاً على الحقيقة فقد صار أقوى من معرفته حين عرفه .

ويقول الحلاج عن الخواص العارفين :

« فالخواص عباده للذين محام عن شواهدهم ، وصانهم عن أسباب الفرقة ، باستهلاكهم فى شهوده ، واستغراقهم فى وجوده ، فإى سبيل للشيطان اليهم ، وأى يد للعدو عليهم ، ومن أشهده الحق حقائق التوحيد ، ورأى العالم مغترفا فى ثقة التقدير ، لم يكن نهبا للاغيار ، ففى يكون للغير عليه تسلط »

البحث مستمر